تشايكوفسكي.. وناجيدا فون ميك

حب.. إيثار.. وشاية.. ونهاية

قصة حب عجيبة تشبه إلى حد كبير قصة جبران ومي زيادة، تبادل تشايكوفسكي وناجيدا 1204 رسالة خلال 14 عامًا؛ ولم يلتقيا سوى مرة واحدة؛ وبشكل خاطف!

رفضت ناجيدا أن يهديها تشايكوفسكي أيًّا من مؤلفاته الموسيقية، وتوقفت عن الكتابة له بعد طلاقه من زوجته، وعرضت عليه التفرغ للإبداع، ومنحته راتبًا شهريًّا جيدًا، ومسكنًا آمنًا، لكن بشرط عدم التقرُّب إليها، وعدم الإعلان عن علاقتهما أبدًا، واعتزال الناس جميعًا.

ولد تشيكوفسكي في عام 1840، وتلقى تعلم الموسيقى على يد مربية فرنسية، وحقق تطورًا سريعًا في تعلم الموسيقى. وكانت هذه المربية تروي له القصص والمغامرات الشيقة، ومنها قصة (جان دارك- عذراء أورليان)، فبقيت هذه القصة في أعماقه حتى استطاع بعد ثلاثين عامًا أن يؤلِّف أوبرا باسم (عذراء أورليان)، وعمل على التأليف الموسيقي أثناء تدريسه بمعهد للموسيقى بروسيا.

تزوج من إحدى طالباته في المعهد، وأثار هذا الزواج جدلًا كبيرًا، وانبرى الكثيرون لوضع تفسيرات لحل لغز زواج تشيكوفيسكي من إحدى تلميذاته، فهناك من فسَّر الأمر بأنه سعى من وراء ذلك لتغطية الشائعات التي بدأت تنتشر عن سلوكه الجنسي الشاذ، إلا أن صديقه الحميم الموسيقار (لاروخ) ترك لنا، في كتابه عن تشايكوفسكي، تفاصيل غاية في الدقة والأهمية، تؤكد بأن هذه الفتاة الجميلة التي كانت طالبة في معهد الموسيقى، عشقت تشايكوفسكي، وتقربت منه، إلا أنه لم يكن يدرك مرامها، ثم أخذت تكتب له الرسائل العاطفية التي تبوح فيها بحبها له، ولم يكن هو يجيبها، وأخيرًا كتبت له رسالة

هددت فيها بالانتحار إذا لم يتزوجها. وحينما لم يستجب لها أقدمت فعلا على الانتحار. وبما أن الشائعات كانت قد انتشرت فعلًا عن سلوكه الشاذ، فما كان منه إلا أن تزوج هذه الطالبة شفقة منه عليها، وتغطية لوضعه وسمعته.

كل الذكريات والمذكرات عن تشايكوفسكي تؤكد أنه كان خجولًا جدًّا بشكل غير طبيعي، هادئًا، صموتًا، بل ومرتبكًا، كما كان طيبًا، أصيلًا وشجاعًا في اتخاذ المواقف اللائقة بالإنسان في المواقف والأوضاع واللحظات الحرجة. ويبدو أن هذه الفتاة كانت تعشقه حقًّا، إلا أن هذا الحب، ثم الزواج، كانا كارثة حقيقية على كليهما، فقد عاشا معًا في بيت واحد، لكن دون أية علاقة جسدية.

وقد كشف تشايكوفسكي عن بعض تفاصيل هذا الزواج في رسالة بعثها إلى (ناجيدا فون ميك)، التي كانت تعيش مع نفسها صراعًا آخر، رغم أن هذا الأمر قرَّب تشايكوفسكي منها أكثر!

خلال سنوات تدريسه في المعهد كتب تشايكوفسكي مؤلفات موسيقية مهمة جدًّا، من أبرزها باليه (روميو وجوليت) عن تراجيديا شكسبير الشهيرة. ورغم أن مرتَّبه خلال هذه السنوات قد تضاعف، تصاعدًا مع امتداد سنوات خدمته ونمو شهرته إلا أن متطلبات الحياة العائلية، وتبذير (زوجته) التي كانت مولعة بالمظاهر وضعته في ضائقة مادية، فاضطر إلى إعطاء الدروس الخصوصية.

وقد كان أول اتصال له بصديقة عمره المتبقي، وشريكة حياته الإبداعية، حينما استلم رسالة منها في 18 ديسمبر عام 1876 من السيدة ناجيدا فون ميك، وقد علق هو فيما بعد بأن ذلك اليوم كان أسعد أيام حياته.

وكانت نادجيدا، والتي يعني اسمها بالروسية (الأمل)، كانت أرملة لمهندس سكك حديدية، ألماني الأصل، جاء إلى روسيا للعمل فيها، فمد خطوط سكك الحديد هناك، وجنى من خلال ذلك ثروات طائلة، لكنه مات مخلفًا أحد عشر ابنًا وبنتًا، فتولَّت زوجته إدارة هذه الأملاك والثروات من بعده.

كانت (نادجيدا فون ميك) في الخامسة والأربعين من العمر حينما مات زوجها، وحينما بدأت مراسلاتها مع تشايكوفسكي كانت هذه السيدة روحًا هائمة في الموسيقى. امرأة اعتزلت المجتمع الأرستقراطي، مركزة اهتمامها على تربية أبنائها وإدارة أملاكهم، لكنها وجدت خلاصها في الموسيقى.

وقد كتبت فيما بعد لتشايكوفسكي بأن مؤلفه الموسيقي (العاصفة) مسَّ أعماقها وجعل الدموع تتدفق من مقلتيها. وبالرغم من أن تشايكوفسكي كان شخصية معروفة في المجتمع الثقافي ويمكن الوصول إليه والاتصال به سهلًا، إلا أن الاتصال الشخصي بينهما تم عن طريق أحد تلاميذه الذي كان يعطي الدروس لأحد أبناء السيدة الأرملة.

وكان هذا المعلم الفتى يروي لها عن عزلة أستاذه ووحدته وظروفه المادية الصعبة، فهبَّت السيدة الأرملة لمساعدته، ولكي لا تحرجه وتحرج نفسها، وجدت شكل مناسبًا لهذه المساعدة، وذلك بتكليفه كتابة قطعة موسيقية لأحد أبنائها كي يتدرب عليها، وخصصت له مكافأة مجزية لم يكن يحلم بها، وكان الحوار بينهما يتم عن طريق الرسائل.

وهكذا وجد تشايكوفسكي ونادجيدا السعادة في هذا الشكل من التواصل بينهما، وبعد أن توثقت العلاقة عن طريق الرسائل، عرضت عليه أن يترك وظيفته في المعهد الموسيقي وأن يتفرغ للتأليف

الموسيقي، مقابل راتب مجزٍ تصرفه له شخصيًّا كل شهر، ومسكن يؤمن له الراحة، لكن بشرط ألا يسعى إلى التقرب الشخصي منها، وأن لا يعلن عن علاقتهما وتفاصيلها أبدًا، بل وطلبت منه أن لا يهدي لها أي عمل موسيقي بشكل علني، لكن وفاءه لها لم يمكِّنه من ذلك فقد أهدى الحركة الثانية من السيمفونية الرابعة (إلى صديقة عزيزة)، وكان يقصد (نادجيدا).

ومن أغرب الأشياء التي حدثت في تلك العلاقة، أن العلاقة بينهما انتهت بعد أن طلق هو زوجته الشابة التي لم تطق الحياة معه بهذا الأسلوب، فانطلقت لتروي ظمأها الروحي والجسدي، وتعيش حياتها الخاصة بعيدًا عنه، ربما انتقامًا منه لتجاهلها في حياته، حيث انتهى بها هذا الطريق إلى مستشفى المجانين. وقد كان ذلك قبل ثلاث سنوات من موت تشايكوفسكي.

وقد ظلت أسرار هذه الانفصال المفاجئ موضع بحث من المهتمين بحياة تشايكوفسكي لعقود من الزمان. فبعضهم أرجعها لخسارة السيدة (فون ميك) لأملاكها وثرواتها في البورصة، وهذا ما لمحت إليه في رسائلها الأخيرة إليه، وبعضهم فسر الأمر بانتشار الشائعات عن حياة تشايكوفسكي الخاصة، ما دفعها للحفاظ على سمعتها، لا سيما وأن الأبناء قد كبروا، لكن هذا الأمر غير دقيق، لأنها كتبت له في أولى رسائلها إليه، أنها تعرف كل صغيرة وكبيرة عنه، وتعرف كل ما يذمه الناس به، وما يتناقلونه عنه، وما إلى ذلك.

لكن بعض الوثائق تؤكد بأن زوج ابنتها، الذي كان بمثابة سكرتير لها، وبعض أبنائها، اتفقوا على إعدام هذه العلاقة، وإيقاف المساعدات، بل وساهموا في عدم إيصال الرسائل التي يرسلها هو إليها، وبالعكس، تمزيق الرسائل التي كتبتها له، ولدينا بعض الرسائل التي كتبها هو إليها بينما نفتقد للرسائل التي كتبتها هي كجواب لهذه الرسائل ولم تصل. وقد ظل هو كئيبًا من تلك القطيعة المفاجئة، كما أحست هي بالخيبة من انقطاعه عنها، ظنًّا منها أنه كان يراسلها لأنها

كانت تساعده ماديًا، وحينما انقطعت المساعدة انقطع عن الكتابة لها.

ورغم غموض نهاية تلك العلاقة وعدم وضع تفسير مرضٍ لسبب نهايتها، فبدايتها كانت جلية واضحة وأسبابها معروفة، فقد جمعهما حب الموسيقى وكره الناس والنفور منهم.

فنجد السيدة ناجيدا في إحدى رسائلها الأولى، قد كتبت لتشايكوفسكي: حينما سمعت موسيقاك لأول مرة، اكتسحتني الرغبة العارمة في أن أتعرف إليك، فأنا لا أفصل الإبداع عن شخصية المبدع، لكن بقدر قوة إعجابي بموسيقاك كان خوفي أيضًا من التعرف إليك.

وكتب هو لها ذات مرة يقول: ثمة مرض ما قد قربنا من بعضنا، هذا المرض هو مرض (الانطواء والنفور من الناس) والناس المصابون بهذا المرض لا يخافون شرور الآخرين، بقدر ما يخافون الخيبة في الآخرين، فهم في حنين إلى المثال الضائع، والذي يحدث في الكثير من الأحيان بعد التقرب من الآخرين.

ويبدو أن هذه الرسائل قد منحت تشايكوفسكي طاقة هائلة على الإبداع، فقدم خلال هذه السنوات أعماله الخالدة، بالهات: بحيرة البجع، الحسك الهش، كسارة البندق، وأوبرات: يفجيني أونيغن، عذراء أورليان، الساحرة، سيدة البستوني، وكذلك أعماله الأوركسترالية والسيمفونيات الرابعة والخامسة ومقطوعة 1812، وهاملت، والكونسيرت التاني والثالث للبيانو، والكونسيرت الأول للكمان، وغيرها من الأعمال الخالدة. وكان قبل ذلك قد أنجز سيمفونياته الثلاث، والكونسيرت الأول للأوركسترا، وباليه (روميو وجوليت)، وكونسيرت (فصول السنة)، وغيرها من الأعمال الموسيقية.

والغريب أن (نادجيدا فون ميك) ماتت بعد ثلاثة أشهر تقريبا من موت تشايكوفسكي، فقد مات هو في 6 نوفمبر 1893، بينما ماتت هي في 13 يناير 1894، بعد ثلاث سنوات من انقطاع الرسائل بينهما، مخلفًا سيمفونية ناقصة هي السيمفونية السادسة. لقد كانت (نادجيدا فون ميك) بالنسبة له مثالًا.. حلمًا.. وقد اعترف هو بذلك قائلا: "إنها مثال الإنسان".

ومهما كانت تفاصيل تلك العلاقة، إلا أنها تبقى من أغرب قصص الحب، بل إنها درس عظيم في الحب، لكل النساء والرجال، ولكل العصور والأزمان، ومثال حي للإيثار والتضحية.